

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أثر الأخلاق في صلاح المجتمع

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ رَسُولًا، وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْفَضِيلَةِ دَاعِيًا وَدَلِيلًا، وَنَشَهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، دَعَا إِلَى التَّحَلِّيِ بِالْفَضَائِلِ وَنَبَذِ الرَّذَائِلِ، وَنَشَهُدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ذُو الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْهُلَ أَخْلَاقِهِ وَمَصْدَرَ صِفَاتِهِ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَأَوْصِيكُمْ وَنَفْسِي - عِبَادَ اللَّهِ - بِالتَّقْوَى، فَإِنَّهَا سَبَبُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى.
إِخْوَةَ الْإِيمَانِ:

طَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ مَفَاتِيحَ الْبَيْتِ وَكَانَتْ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ وَكَانَ وَقْتَهَا عَلَى الشَّرْكِ، فَأَرْسَلَ الْمُصْطَفَى ﷺ عَلِيًّا لِيَأْتِيَ بِهَا، غَيْرَ أَنَّ عُثْمَانَ رَفَضَ تَسْلِيمَهَا، وَقَالَ: ((مَفَاتِيحُ وَرِثَتَهَا مِنْ آبَائِي لَنْ أُسَلِّمَهَا أَحَدًا))، فَأَخَذَهَا عَلِيٌّ عَنُوءَةً مِنْ عُثْمَانَ وَسَلَّمَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَفَتَحَ بِهَا الْمُصْطَفَى الْبَيْتَ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (١)، فَأَمَرَ الْحَبِيبُ الْمُصْطَفَى ﷺ عَلِيًّا أَنْ يَرُدَّ الْمَفَاتِيحَ إِلَىٰ عُثْمَانَ، فَتَعَجَّبَ عُثْمَانُ مِنْ صَنِيعِ عَلِيٍّ، أَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَرَدَّهَا بِلُطْفٍ، فَأَخْبَرَهُ عَلِيٌّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ فِي حَقِّهِ قُرْآنًا يُتْلَى، فَمَا كَانَ مِنْ عُثْمَانَ إِلَّا أَنْ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ.
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

الإسلام دين أخلاق وحسن معاملة، هذا الذي يُعَلِّمُنَا إِيَّاهُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَتَبَيَّنَتْ لَنَا السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ بِكُلِّ وَضُوحٍ وَجَلَاءٍ، يَقُولُ الْمُصْطَفَى ﷺ مُبَيِّنًا حَقِيقَةَ دَعْوَتِهِ وَمَنْهَجَ رِسَالَتِهِ: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ))، وَيَقُولُ: ((إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَبُّكُمْ إِلَيَّ

(١) سورة النساء/٥٨ .

أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا))، وَيَقُولُ: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا))، وَمِمَّا يَدُلُّنَا أَيْضًا عَلَى عَظِيمِ مَكَانَةِ الْأَخْلَاقِ فِي هَذَا الدِّينِ وَصَفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ، إِذِ اخْتَارَ لَهُ وَصْفًا مُحَدَّدًا دَقِيقًا فَقَالَ لَهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، فَلَمْ يَصِفْهُ بِالْحِكْمَةِ أَوْ الْهِمَّةِ أَوْ حُسْنِ الْقِيَادَةِ أَوْ ذَكَاءِ الْإِدَارَةِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا اتَّصَفَ بِهِ ﷺ، بَلْ وَصَفَهُ بِوَصْفٍ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَصَفَهُ بِعَظِيمِ الْخُلُقِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ:

إِنَّ النَّظَرَ فِي تَعَالِيمِ هَذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ، يَجِدُ أَنَّهَا تَرَسِّمُ لِلْمُجْتَمَعِ مَنْظُومَةَ الْأَخْلَاقِ الْعَظِيمَةِ، حَتَّى إِنَّ الْعِبَادَاتِ الْمَحْضَةَ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِجَانِبِ الْمُعَامَلَاتِ هِيَ أَيْضًا لَهَا صِلَةٌ وَثِيقَةٌ بِالْأَخْلَاقِ، إِذْ إِنَّهَا تُوَدِّي إِلَى التَّخَلُّقِ بِالْمَكَارِمِ وَتَقْوِيمِ السُّلُوكِ وَتَهْذِيبِ الطَّبَاعِ، فَفِي الصَّلَاةِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢)، فَهَذِهِ غَايَةُ الصَّلَاةِ، أَنْ تَنْهَى الْفَرْدَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَكَذَلِكَ الصَّوْمُ يَحْمِلُ النَّفْسَ عَلَى تَرْكِ كُلِّ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَقَبِيحٍ مِنَ الْعَمَلِ، يَقُولُ ﷺ: ((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ؛ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَجِّ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ^ع فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾^(٣)، وَهَكَذَا - عِبَادَ اللَّهِ - لَوْ تَتَّبَعْنَا كُلَّ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ لَرَأَيْنَا أَنَّ نَتِيجَتَهَا جَمِيعًا حُسْنُ الْخُلُقِ. وَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَا هِيَ إِلَّا أَفْعَالٌ فَحَسْبُ لَا أَثَرَ لَهَا فِي الْوَاقِعِ وَفِي الْحَيَاةِ هُوَ تَصَوُّرٌ مُجَانِبٌ لِلصَّوَابِ، لِذَا تَجِدُ مِنْ أَوْلَائِكَ النَّاسِ مَنْ يُسَارِعُ إِلَى صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ حَيْثُ تَقَامُ، لَكِنَّهُ إِذَا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ فَرَزَعَ مِنْهُ زَوْجُهُ أَبْنَاؤُهُ، فَهُوَ سَيِّئُ الْعِشْرَةِ وَالرَّعَايَةِ وَالتَّرْبِيَةِ. وَلرَبِّمَا تَجِدُ أَيْضًا رَجُلًا جَوَادًا فِي الْخَيْرِ يُنْفِقُ وَيَتَصَدَّقُ، غَيْرَ أَنَّهُ يُؤْذِي جِيرَانَهُ بِلِسَانِهِ وَفِعَالِهِ،

(١) سورة القلم/٤.

(٢) سورة العنكبوت/٤٥.

(٣) سورة الحج/١٩٧.

هؤلاء - عباد الله - لم يفهموا حقيقة العبادة، ولم يعرفوا مقاصدها، ولم يؤدوها حق أدائها، لذا لا تجد لها أثرا في حياتهم.

أيها المسلمون:

إن المجتمع الذي بُني على الأخلاق الفاضلة هو - لا شك - مجتمع راق، تسكن فيه الطمأنينة والسكينة، ويوجد فيه التكافل والتعاون، وهذا الذي فهمه الرعيل الأول وقد فقهُوا توجيهاً هذا الدين وإرشاداً، فكوتوا بذلك أمة أخلاق، يُذكر أن أيام جوع وقررت بمجتمع المدينة المنورة وهو مجتمع الأخيار من المهاجرين والأنصار، فطرق باب أحدِهِمْ مرّةً؛ ففتح الباب؛ فإذا بجار له قد جاء إليه بلحم هديّة، وأي لحم كان ذلك والزمن زمن فقر وجوع؟ إنّما كان رأس شاةٍ فحسب، فانفجرت أسارير الرجل عندما تسلّم هديّة جاره، وربّما منى نفسه أنه سيُطعم تلك الليلة أبناءه لحمًا، غير أنه تذكر جارا له آخر، ذكر فقره وحاجته، فقال في نفسه: لعل جاري فلانا أحوج مني إلى هذا؛ فأخفاه عن أبنائه وبعث به إلى جاره، وجاره ذلك ما كان أقلّ شأنًا منه، فبعث بالرأس إلى جاره له ثالث، يُذكر - أيها الأحبة - أن ذلك الرأس مرّ على عشرة بيوت عاد في آخر المطاف إلى أولها، هكذا كان مجتمع الأخلاق والفضائل. وفي عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - غنم المسلمون أموالاً عظيمة، فحملت ذلك المال قوافل طويلة إلى المدينة وما نقص منه شيء، فأعجب عمر بأمانتهم وعفتهم. تلك بعض صور الأخلاق وآثارها عندما يُعاشها الناس واقعا في حياتهم، وما أعظم منظومة الأخلاق في الإسلام، تجدها مكتملة البنيان، راسخة الأركان، فهي تنبع في الأساس من منهج الله الذي ارتضاه للناس هاديا ودليلا، والمسلم وهو يأتي بخلق حسن أو يدع خلقا قبيحا إنّما يفعل ذلك ليفوز برضا الله؛ فيكون أكثر حرصا على الخير وبعدا عن الشر، فعندما يعيش المجتمع بهذه الأخلاق لن يظلم جار جاره، ولن يعق ابن أباه، ولن تجد من يضيع الأمانة أو يتصف بالخيانة.

فاتقوا الله - عباد الله -، ولنلتزم الأخلاق الحميدة، ولنغرسها في نفوسنا وأبنائنا

وَمُجْتَمَعَاتِنَا.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ
يَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ.

*** **

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا مُتَمِّمًا لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَوًّا حُسْنَ الْخُلُقِ مَكَانًا عَلِيًّا، وَهَدَى صَاحِبَهُ صِرَاطًا سَوِيًّا، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَسْمَى النَّاسِ أَخْلَاقًا وَأَفْعَالًا، وَأَزْكَاهُمْ أَقْوَالَ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللَّهِ:

أَنَّ تَرْبِيَةَ الْأَجْيَالِ تَبْدَأُ مِنْ غَرْسِ الْقِيَمِ الصَّحِيحَةِ، وَالتَّرْبِيَةِ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَلَمَّا كَانَتْ الْأَخْلَاقُ بِهَذِهِ الْأَهْمِيَّةِ، حَرَصَ عَلَى غَرْسِهَا الْمُرْسَلُونَ فِي أَتْبَاعِهِمْ، وَالْمُرَبُّونَ فِي طُلَّابِهِمْ، وَالْآبَاءُ الصَّالِحُونَ فِي أَوْلَادِهِمْ، فَطُوبَى لِمُعَلِّمٍ كَانَ قُدْوَةً لَطَّلَبِهِ، مُنْصِفًا فِي ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، قَدْ اتَّخَذَ مُحَمَّدًا ﷺ قُدْوَةً وَمِثَالًا، لِيَقْتَدِيَ الطَّلَبَةُ بِهِ أَمَانَةً وَاعْتِدَالًا، شِعَارُهُ الْحَزْمُ فِي لَيْنٍ، وَهُوَ لَوْ قَتِ الدَّرْسِ مِنَ الْحَافِظِينَ، يَأْتِي إِلَى وَقْتِ الدَّرْسِ قَبْلَ بَدَايَتِهِ، وَلَا يَخْرُجُ حَتَّى نِهَائَتِهِ، لَا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ فِي الْقَالَ وَالْقِيلِ، وَلَا يَخُونُ أَمَانَتَهُ بِالْمُزَاحِ الْهَزِيلِ، مِثْلُ هَذَا الْمُعَلِّمِ هُوَ الَّذِي يُرْجَى أَنْ يَخْرُجَ عَلَى يَدَيْهِ جِيلٌ نَاجِحٌ وَنَشْءٌ صَالِحٌ، فَبُورِكَتْ جُهُودُ الْمُعَلِّمِينَ، وَسُدَّتْ أَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ، وَلَا حَرَمَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ بَدَلِهِمْ وَعَطَائِهِمْ، فَكَمْ نَفَعَ اللَّهُ بِهِمُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَكَمْ تَعَلَّمَتِ الْأَجْيَالُ مِنْهُمْ كَيْفَ يَكُونُ الْبَدَلُ وَالْعَطَاءُ، فِي مَنْهَجٍ مُتَمَيِّزٍ وَفِكْرٍ نَيِّرٍ، سَيَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ رَصِيدًا لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ، وَذَخْرًا لَهُمْ فِي آخِرَاهُمْ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ -، وَكُونُوا عَلَى الْخَيْرِ أُدِلَّةً مُعِينِينَ، وَبِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ قُدْوَةً أَمْرِينَ، تَتَّالُوا رِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتَكُونُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْفَائِزِينَ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى إِمَامِ الْمُرْسَلِينَ، وَقَائِدِ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ، فَقَدْ أَمَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ عَزَّ قَائِلًا عَلِيمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ

وَمَلَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١﴾.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وَسَلَّمْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَقَرُّفَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَقَرُّقًا مَعْصُومًا، وَلَا تَدْعُ فِينَا وَلَا مَعَنَا شَقِيًّا وَلَا مَحْرُومًا. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالنُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ كُلًّا مِنَّا لِسَانًا صَادِقًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا خَاشِعًا مُنِيبًا، وَعَمَلًا صَالِحًا زَاكِيًّا، وَعِلْمًا نَافِعًا رَافِعًا، وَإِيمَانًا رَاسِخًا ثَابِتًا، وَيَقِينًا صَادِقًا خَالِصًا، وَرِزْقًا حَلَالًا طَيِّبًا وَاسِعًا، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَوَحِّدِ اللَّهُمَّ صُفُوفَهُمْ، وَأَجْمَعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلَامَ وَالْأَمْنَ لِعِبَادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزِّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ. اللَّهُمَّ رَبَّنَا اسْقِنَا مِنْ فَيْضِكَ الْمُدْرَارِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الذَّاكِرِينَ لَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، الْمُسْتَغْفِرِينَ لَكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأَسْحَارِ. اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثَمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وَكُلِّ أَرْزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.